وفية لأختي بالعهد مشفقة على حقها أن يضيع، حريصة على أن أحتفظ لها بهذا العاشق الخائن رغم أنفه، مقاومة في سبيل ذلك قوة الفطرة وقوانين الحياة، أم كنت أتخذ هذه الخواطر حجة وعلة أخفي بها على نفسي ما لا أحب أن تظهر عليه، وأستر بها دون قلبي ما لا أجد الشجاعة على أن أواجهه به في صراحة وجلاء؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا، بل لم أكن أسأل نفسي عن شيء ما، وإنما كنت أفني قوتي وجهدي وتفكيري في أن أحول بين خديجة وبين هذا التدبير الذي يُدبر وهذا الكيد الذي يراد، وكثيرًا ما كان يخطر لي أني أحمي خديجة من شرٍّ عظيم، وأحُولُ بينها وبين خطر منكر، وأقوم دونها أن يفترسها السبع أو يغتالها الذئب، وأضن بها على أن تُبتذل لهذا المجرم الآثم الذي لا يعرف حقًّا ولا يرعى حرمة ولا يرجو وقارًا لخُلق ولا دين، وكثيرًا ما كنت أقدر أن قيامي دون خديجة وحمايتها من هذا الخطر الذي يوشك أن يلم بها فرض يأخذني به الوفاء لما بيننا من مودة، والرعاية لما لها عندي من جميل، وكثيرًا ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف بعضه إلى بعض ويتمثل أمام نفسي مجتمعًا مؤتلفًا قد اتخذ من الوفاء والنصح والإخلاص زينة خلابة، فإذا هو أمامي مرآة نقية صافية، أنظر فيها فترد إليَّ صورة نفس كريمة عظيمة قد ارتفعت عن كل نقيصة، وأصبحت مثالًا للبطولة والشهامة والتضحية في سبيل الأخت التي اغتالها الخطر، والصديق التي يوشك الخطر أن يغتالها.

ولو أني حولت وجهي عن هذه المرآة بعض الشيء في ذلك الوقت، ولو أني نظرت في نفسي ولم أنظر أمامها ولا من حولها، ولو أني تعمقت قلبي وتبينت قرارة ضميري، لرأيت شرًّا يا له من شرٍّ، ولشهدت هولًا يا له من هول، ولعرفت أني لم أكن أفي لأختي ولا لصديقي، وإنما كنت أؤثر نفسي بما أراه خيرًا وشرًّا، وأقف هذه النار المضطرمة المتأججة على نفسي وأحميها من أن يحترق بها غيري!

نعم! ولكني لم أكن أنظر في نفسي ولا أحاول النظر فيها، وإنما كنت مدفوعة إلى إفساد هذا الأمر الذي يُدبر، ومنع الأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذي كان لأختي منذ حين، والذي يجب أن يكون لي بعد حين، كأنما ورثته عنها بعد الموت!

والغريب أن هذه الخواطر المضطربة كلها لم تفسد من أمري شيئًا، ولم تغير من شكلي ولا من نظام حياتي الذي ألفه أهل الدار قليلًا ولا كثيرًا، إنما كنت أصبح وأمسي، وأذهب وأجيء، وأعمل وأكسل، وأنشط وأفتر، كما رآني أهل الدار من قبل، بل خيرًا مما